مشكلات الصحافة الإسلامية

فهمى هويدى
الكاتب الإسلامى

عندما نجرى حوارا حول الصحافة الإسلامية، فينبغى ألا يغيب عن بالنا أن فنون الاتصال مع الجماهير حققت خلال السنوات الأخيرة قدرا هائلا من التقدم، هو بحق بمثابة ثورة، ربما كانت فى مقدمة الإنجازات المبهرة فى العالم المعاصر. الأمر الذى وفر للإعلام دورا بارزا ورئيسيا فى تشكيل الوعى العام، وصياغة الأحداث وربما صناعتها أيضا. حتى ليبدو فى أحيان كثيرة أن العبرة ليست بما إذا كنت على حق أو باطل فى أية قضية. ولكن العبرة بالصورة التى يرسمها الإعلام عنك لدى الرأى العام، ليس المحلى فقط وإنما العالمى أيضا .

لن نذهب فى التمثيل بعيدا. فنحن خارجون للتو من تجربة تعد نموذجا لهذا الذى نقوله .. فقضية جبهة الإنقاذ الإسلامية بالجزائر لعب الإعلام الدور الرئيسى فى حسمها لصالح القوى الرافضة للمشروع الإسلامى. إذ نجح الإعلام منذ وقت مبكر فى رسم صورة منفرة ومخيفة للجبهة وخطابها السياسى، الأمر الذى شكل وعيا رافضا لمشروعها كله لدى شرائح غير قليلة فى العالم العربى والإسلامى، وبطبيعة الحال فى العالم الخارجى. وكان ذلك الوعى هو القاعدة التى استند إليها الجيش فى الانقلاب الذى أحدثه وأوقف به المسيرة الديمقراطية فى الجزائر. أيضا فإنه كان بمثابة غطاء برر كل ما اتخذته السلطة الجديدة لقمع الحركة الإسلامية وملاحقة عناصرها. بدعوى أنها تشكل تهديدا للديمقراطية. بينما التهديد الحقيقى هو ما مارسته تلك السلطة بإلغائها نتائج الانتخابات التى ارتضتها الإرادة الشعبية، وبإعلانها حالة الطوارئ فى الجزائر .

ولئن مارس الإعلام العالمى ذلك الدور بحق الثورة الإسلامية فى إيران، إلا أنه انتبه إليه واستخدم سلاحه ذاك بعد نجاح الثورة، ولو أدركت أجهزته حقيقة تلك الثورة ومراميها لسعت إلى إجهاضها قبل وقوعها ، ولعملت على تأليب الرأى العام الإقليمى والعالمى ضدها، كما حدث مع الجزائر . حتى أننا نكاد نقول بأن ما مورس بحق الجبهة الإسلامية فى الجزائر لا يخلو من استفادة من تجربة الثورة الإسلامية فى إيران. أعنى أن القوى ذات المصالح وثيقة الصلة بالآلة الإعلامية الجبارة استوعبت درس إيران، وقررت فى الجزائر أن تتغدى بالإسلاميين قبل أن يتعشوا هم بها، كما يقول المثل المشرقى الشائع .

ولا نستطيع أن ننسى فى هذا الصدد مدى وحجم الدور الذى لعبته وسائل الإعلام فى تشويه مجمل الظاهرة الإسلامية، التى اعتبرتها امتنا" صحوة " مبشرة بخير كثير، ولكنها لم تعد تذكر فى وسائل الإعلام إلا باعتبارها " أصولية " باتت ترتبط فى الأذهان بالعنف والإرهاب وانتهاك حقوق الإنسان ومصادرة دور المرأة و قهر الأقليات .

ولا نريد أن نذهب بعيدا فندعى أن ذلك هو الدور الوحيد للإعلام العالمى، ونلقى تماما أى

دور إيجابى لذلك الإعلام. لأننا على قناعة بأن الإعلام وسيلة يمكن أن توظف للبناء أو للهدم، كما يمكن أن توظف لصالح ما هو خير أو ما هو شرير . ودورنا لا ينبغى أن يكون مقصورا على اتهام الإعلام أو توجيه السباب إليه ولكن إلى جانب الوعى بأهميته، فإننا مطالبون بأن ندرس ذلك الفن ونتمكن من علومه وتقنيته، حتى نوظفه لصالح الدفاع عما هو خير وبناء، وللذود عن حياض المستضعفين وحقهم فى الحياة، فى ظل الاستقلال والحرية والكرامة .

نعم ينبغى أن نعترف بأننا ارتكبنا أخطاء سياسية أو فكرية استخدمها الآخرون فى تهييج العالم وتقليب الرأى العام فى كل مكان ضدنا، حتى بين أهلينا وفى داخل أقطارنا، لكننا أيضا ينبغى أن نذكر أنهم مارسوا بحقنا قدرا لا يستهان به من الظلم والافتراء لتشويه حقيقة الظاهرة الإسلامية وتقديمها فى اتعس صورة ممكنة .

لقد اختلقوا الكثير ونسبوه إلينا، وبالغوا فى تقديم أخطائنا، بعد ما تصيدوها وتربصوا بنا، وسلطوا كل الأضواء على تلك الأخطاء، حتى لم يذكروا لنا حسنة أو فضيلة. وحين أخطأ غيرنا – مثلنا – فإن أخطاءنا وحدها التى أبرزت وروج لها فى أنحاء العالم، فى حين سكت عن غيرنا، وربما غفر لهم .

فى مواجهة ذلك كله، فلا مفر من الاعتراف بأن الإعلام المعبر عن الحالة الإسلامية كان، ولا يزال، دون مستوى تلك الحالة المتنامية تلك هى القاعدة، والاستثناء نادر ولا حكم له . وهى مفارقة جديرة بالدراسة والتحقيق، حيث لم تستطع تلك الحالة الإسلامية برغم كل ما أنجزته على صعيد الشارع الإسلامى أن تثبت أى حضور له قيمته فى الساحة الإعلامية. وفيما تمضى مؤشرات تلك الحالة باتجاه الصعود، فإن مؤشرات التعبير الإعلامى عنها تتذبذب بين الثبات والتقدم البطئ أو التراجع. حتى بدا الجسم الإسلامى كبيرا، بينما صورته مشوهة ولسانه متعثر أو عاجز .

وفى حين نجد تيارات أو جماعات سياسية أخرى، مثل الماركسيين، لا تتمتع بأى حضور فى الشارع، بينما صوتهما عال وحضورهم ملحوظ فى الساحة الإعلامية. وفى تجارب أخرى مثل – مصر – فإن أحزاب اليسار لا تكون جماعة سياسية لها اعتبار أو وزن ، ولكنها تنهض فقط على صحيفة جيدة التقديم والإخراج تنطق باسمهم .

من هنا تصبح أزمة الصحافة الإسلامية جديرة حقا بالدراسة. لكننا قبل أن نحاول استعراض جوانب تلك الأزمة، نلفت النظر إلى العناصر التالية :

إن الإعلام الإسلامى يظل جزءا من الواقع الإسلامى لا ينفصل عنه. ومن ثم فإن تقدم ذلك الواقع أو تخلفه ينعكس بصورة مباشرة على أدوات التعبير عنه، والإعلام فى المقدمة منها .

. إن تقييمنا لموقف الإعلام أو الصحافة الإسلامية قد يختلف من بلد إلى آخر . فما يسرى على الدول الملتزمة بالإسلام قد لا يسرى على غيرها، وما يصدر عن دول يمارس العمل الإسلامى دوره بصورة شرعية وعلنية، قد يختلف عن ذلك الذى يصدر فى دول أخرى يحارب فى ظلها العمل الإسلامى ويتحرك خارج الشرعية. وإذ نحاول هنا التركيز على ما هو مشترك فى المجتمعات الإسلامية، لكننا نرجو ألا تغيب تلك الملاحظة عن البال .

إن الحرية هى المناخ الوحيد الذى يزدهر الإعلام فى ظله . وإذا كانت فنون الإعلام تؤدى دورا ضخما فى التأثير وتشكيل الوعى، فإن الحرية هى التى تسمح لذلك الوعى بأن يتشكل على نحو صحيح، من حيث أننا فى هذه الحالة نتيح فرصة عرض مختلف الآراء على الناس، ونمكنهم بالتالى من الانحياز إلى ما يقتنعون به وليس إلى ما يفرض عليهم .

إن الإعلام فى تطوره المثير الراهن لم يعد يؤدى دوره فقط فى نطاق المعلومات والمعارف، ولكنه أصبح يمارس دورا مماثلا فى مجال التأثير على القيم والتقاليد وخلق العادات. وما إعلانات السلع التى تبثها قنوات التليفزيون إلا نموذجاً من نماذج ذلك النوع من التأثير ، الأمر الذى يعزز من خطورة – وفعالية – الآلة الإعلامية ويبين مدى الخسارة التى تلحق بالمسلمين من جراء تخلفهم فى ذلك الميدان أو غيابهم عنه .

إن اتساع نطاق البث المباشر، الذى صار يمكن محطات التليفزيون العالمية من تجاوز الحدود البعيدة واقتحام واقعنا الإسلامى يلفت أنظارنا إلى ضرورة المسارعة إلى تنمية قدراتنا التليفزيونية بوجه أخص، حتى تصبح قادرة على الصمود فى مواجهة ذلك الغزو الجديد، وإلا فإن الجماهير سوف تنصرف عنها، لتجد زادها ومتعتها فى ذلك البث المباشر .

ونحن نقيم موقفنا ونتحدث عن تطلعاتنا فى المجال الإعلامى، فإننا نفضل أن نركز على الشق المتعلق بمسئوليتنا ومشكلاتنا، وأن نمارس فى ذلك نوعا من النقد الذاتى، ونحن ندرك أن الآخرين – كما أسلفنا – لهم دور بصورة أو أخرى فى الوضع الذى انتهى إليه حالنا وفى الصورة السلبية المرسومة لنا فى العالم الخارجى . ولكنى أحسب أن ذلك هو موقفهم الطبيعى، باعتبار ما يحركهم من مصالح أو حسابات حضارية أو عقائدية. ثم أننا لسنا فى موقف يسمح لنا لا بحسابهم على مسلكهم ذاك، ولا بتصحيح ذلك المسلك .

والأمر كذلك، فمع إدراكنا لموقف الآخرين وفهمنا له، فإننا سنحاول التحقيق فى دورنا ومسئوليتنا عن الضعف أو العجز الذى تعانى منه الصحافة الإسلامية ... وانطلاقا من ذلك، فإننا نذهب إلى أن أهم مشكلات الصحافة الإسلامية تتمثل فيما يلى :

١ – هناك أزمة فى الوعى بمصطلح الصحافة الإسلامية ذاته، ناشئة بالدرجة الأولى عن قصور

الوعى بمفهوم العمل الإسلامى ذاته. فهناك من يتصور أن الشأن الإسلامى هو التعبدى، بالمعنى الشائع، أو الخيرى أو التراثى. ومن ثم فالإسلام فى هذه الزواية هو الذى يدور فى فلك المسجد والفرائض أو يتعلق بالماضى، فى حين أن الذى نفهمه هو أن مساحة العمل الإسلامى تستوعب الحياة كلها، كما أن التعبد لله يمكن أن يتحقق بكل الأعمال، إذا خلصت فيه النية بطبيعة الحال.

من نتيجة ذلك أن ما هو إسلامى صار فى خطابنا الإعلامى العام هو صفحة " دينية " يوم الجمعة ، كما أنه صار برنامجا إذاعيا أو تليفزيونيا. فى حين أن التصور الآخر يرى أن كل جهد يلتزم بقيم الإسلام فى أى مجال آخر، سياسى أو علمى أو رياضى أو ثقافى، فإنه يدخل فى نطاق الصحافة الإسلامية .

سواء حدث ذلك نتيجة لقصور فى فهم العاملين بالساحة، أو نتيجة لضغوط تمارسها الأنظمة العلمانية لحصار الإسلام فى نطاق ضيق ومحدود، فالنتيجة واحدة، وهى أن المفهوم السائد عن الصحافة الإسلامية يضيق من دائرته إلى حد كبير، حتى ليحصره فى الشئون الأخروية ويكاد يقطع صلاته بما هو دنيوى .

٢ - أزمة الحرية فى العالم الإسلامى تمثل مشكلة أخرى، حيث تعانى الصحافة الإسلامية صنوفا متعددة من التسلط، الذى يتم باسم الأنظمة حينا، وباسم الحركة الإسلامية فى حين آخر. وفى الحالتين فإن الرأى الآخر عادة ما يغيب عن الصحافة الإسلامية. ومن ثم فإنها تصبح منبرا للتبشير وليس ساحة للحوار .

فهناك أنظمة تمنع الصحافة الإسلامية من الأساس. وأخرى تضيق عليها وتخضعها لرقابة مشددة حتى تحاصرها فى المجرى الضيق الذى أشرنا إليه توا، وإلا فالمصادرة مصيرها (تجربة صحيفة " الفجر " فى تونس نموذج لذلك) .. وفى كل الأحوال فموقف الأنظمة ليس مستغربا كثيرا . إنما المستغرب حقا هو ما تمارسه بعض الجماعات والحركات الإسلامية من تسلط قد لا يختلف كثيرا فى جوهره عن تسلط الحكومات، حيث يصادر الحوار فى الصحافة الإسلامية لصالح ما يسمى " بالخط " الفكرى أو السياسى للجماعة. الأمر الذى يعنى أن أزمة الحروب متجذرة فى الواقع ، وأن آثارها شاملة للجميع، سواء النخب القابضة على السلطة أو تلك المعارضة لها .

خطورة هذه الظاهرة فى الحالة الإسلامية أنها تعكس نموذجا للانفصال بين حقيقة الرسالة وبين واقع الذين يبشرون بها، الأمر الذى يشوه موقف الإسلام ويسىء إليه من ناحية. ثم إنه يشيع مناخا غير صحى بين المتلقين من ناحية ثانية. حيث يستقبل أولئك المتلقون

خطابا واحدا يتعاملون معه على قاعدة الامتثال وليس على قاعدة التفاعل والحوار .

٣ – نتيجة للإلتزام الرسالى المفترض فى الصحافة الإسلامية فإنها ما زالت تعنى بالرأى والمقال بأكثر من عنايتها بالخبر . وهى فى ذلك تعتمد الخطاب التبشيرى المباشر الذى لا يعترف بفنون التوصيل فى العمل الصحفى. وأكاد أقول إن لغة الصحافة الإسلامية لا تميز كثيرا بين الخطابة والكتابة. فأنت ترى أكثر ما ينشر فى تلك الصحف وكأنه نسخ فى الخطب والمواعظ التى تلقى فى المناسبات المختلفة . ولا بأس فى التبشير ولا غضاضة فى الإلتزام بطبيعة الحال، لكن المشكلة تنشأ فى كيفية التعبير عن هذا الموقف أو ذاك. وهل يكون ذلك من خلال الخطاب الدعائى المباشر، أم من خلال الأساليب والفنون المعتمدة فى العمل الصحفى . يستصحب ذلك خلل فى معايير التقييم، بمقتضاه تصير الأولوية فى عرض مواد الصحافة الإسلامية للقيادات الإسلامية دائما . فكلام المسئول فى الحركة الإسلامية مثلا هو أهم كلام فى المجلة أو الصحيفة بحكم الموقع التنظيمى، وهو الذى يتصدر خطاب الصحيفة فى كل الأحوال .

وفى أحيان أخرى كثيرة فإن الصحافة الإسلامية تنشر مواد وتبرزها لمجرد أنها صادرة عن رموز بارزة فى الحركة، حتى ولو كانت تلك الرموز لا علاقة لها بمهنة الصحافة أو الكتابة عموما، وحتى إذا كان ما يصدر عنها لا يهم القارئ المصرى فى شئ . وهو المستهلك الأساسى لتلك السلعة .

ومن الزواية المهنية، فإن المرء يتساءل لماذا يكون مسئول الحركة أو الجماعة الإسلامية هو مسئول التحرير، ولماذا يكون الموجه فى الحركة هو الكاتب الأول فى صحيفتها .

ونحن نقبل أن يقع ذلك كله بطبيعة الحال، بشرط واحد هو أن يتم فى إطار نشرات الدعوة والتبشير التى لا علاقة لها بمهنة الصحافة. ولأن ذلك هو الطابع الغالب فإننا نكاد نقول بأن ما يسمى بالصحافة الإسلامية هو فى حقيقة الأمر نوع من النشرات الدعائية والتبشيرية التى يصعب انتسابها إلى الصحافة كمهنة لها قواعد وأصول، ولها أساليبها وفنونها المتعددة. من هذه الزواية فإن التعريف المتداول للصحافة، باعتبارها أداة للأخبار والترويج والتثقيف، لا ينطبق على الصحافة الإسلامية التى تعنى بالتثقيف والدعوة فقط، وتتراجع عنايتها للأخبار أو الترويج .

٤ – ينبغى أن نعترف أيضا بأن الصحافة الإسلامية تواجه أزمة فى الكوادر. وأن أحد الأسباب التى أسهمت بشكل حاد فى خلق هذه الأزمة أن الإسلاميين لم يعنوا كثيرا فى الماضى بالتواصل مع الجماهير من خلال فنون الاتصال الحديثة من صحافة وإذاعة وتليفزيون

وسينما وما إلى ذلك، وإنما كانت عنايتهم منصبة بقدر أكبر على الأسلوب التقليدى فى الدعوة، وهو التبشير الفردى والخطابى .

يتصل بذلك أن التضييق على الإسلاميين الحاصل فى كثير من بلدان العالم الإسلامى أغلق فى وجوههم أبواب العمل فى مجالات الاتصال مع الجماهير، فى حين فتحت لغيرهم على مصارعها . وكان من نتيجة ذلك أن احتلت النخب المختلفة، الليبرالية والعلمانية والاشتراكية وغيرها مواقع التوجيه والتأثير فى الرأى العام، فى حين حرم الإسلاميون من ذلك. وتجلى ذلك على نحو أخص فى مرحلة المد القومى والاشتراكى بالعالم العربى ، التى سادت فيما بين الخمسينات والسبعينات، واستصحب إبعادا للإسلاميين عن مختلف ساحات الخطاب العام .

أيا كان السبب فالنتيجة أن المد الإسلامى صار يواجه الآن أزمة عميقة فى الكوادر الصحفية، بل فى الكوادر المدربة على مختلف فنون الاتصال مع الجماهير، الأمر الذى أدى إلى غيبة الطرف الإسلامى عن تلك المجالات، وهيمنة غيرهم عليها ، ممن استخدموها كسلاح ضدهم فى أغلب الأحوال .

هنا تجدر الإشارة أيضا إلى أن النظرة السلبية فى الواقع الإسلامى تجاه الفنون كان لها تأثيرها على إحجام الإسلاميين عن الانتفاع بفنون الاتصال الأخرى مثل السينما والتليفزيون، ومن ثم أدى ذلك إلى غيابهم تماما عن هذين المجالين . وربما كانت لإيران تجربة مختلفة فى ذلك بعد الثورة الإسلامية، لكنها تظل استثناء على الحالة الإسلامية العامة .

٥ – تعانى الصحافة الإسلامية أيضا من مشكلة المعلومات، النابعة أساسا من هيمنة وكالات الأنباء العالمية على المعلومات التى تبث إلى مختلف أنحاء العالم، حتى أن الدراسات أشارت إلى أن ٩٠ ٪ من المعلومات والأخبار التى تنشرها صحف العالم الثالث مصدرها ومحورها هو تلك الوكالات الغربية .

على صعيد آخر فإن العالم الإسلامى يفتقد إلى وكالة أنباء أو أى شكل من أشكال شبكات الاتصال، التى تغطى أخباره. ولم ينجح حتى الآن مشروع وكالة الأنباء الإسلامية التى سعت منظمة المؤتمر الإسلامى إلى إنشائها .

كانت النتيجة أننا أصبحنا نتابع أخبار العالم الإسلامى فى الأغلب الأعم، إما من خلال القراءة الغربية لها، التى لابد أن تعنى بأمور وتتجاهل أمورا أخرى كثيرة، فضلا عن أنها قد تشوه الصور المنقولة عن الواقع الإسلامى كما كان يحدث مع إيران من قبل ومع الجزائر أخيرا .

و إما أن تتم تلك المتابعة بالصدفة البحتة. عبر الروايات الشفهية أو المشاهدات غير المرئية وفى ظل وضع كهذا فإن الصحافة الإسلامية تصبح فى حالة عجز عن تغطية أخبار العالم الإسلامى والقيام بأى دور فى التواصل بين الأمة الواحدة. ويقتضينا الإنصاف هنا أن نشير إلى دور تؤديه صحيفة " المسلمون " فى التغطية الإخبارية للعالم الإسلامى، يبدو مميزا فى الفراغ الراهن .

٦ – تعانى الصحافة الإسلامية فضلا عما سبق، من مشكلة الموارد المالية. فلأنها صناعة مكلفة للغاية ، فإن دخول سوقها يتطلب جهدا معتبرا من القدرة، أحسبه يتجاوز بكثير ما هو متوفر فى العادة للحركات الإسلامية. ومن ثم فإن تلك الصحافة ينبغى أن تعتمد على مصدر تمويلى، إن كان دولا فذلك يعنى فرض قيد على حرية وأداء المطبوعة الصحفية. وإن كان ممولين كبارا أشخاصا كانوا أو مؤسسات، فإن النتيجة لن تختلف كثيرا . وتزداد المشكلة تعقيدا إذا وضعنا فى الاعتبار شح الموارد الإعلانية التى هى عصب المشروعات الصحفية والممول الطبيعى لها، يستوى فى ذلك أن يكون الشح ناتجا عن إحجام المعلنين عن التعامل مع الصحافة الإسلامية، لسبب أو لآخر. أو أن يكون الإعراض عن الصحف الإسلامية ذاتها، التى لا تتحمس أحيانا لنشر إعلانات العطور وأدوات التجميل وشركات الدخان مثلا .

فى هذه الحالة، فالنتيجة أن المطبوعة الإسلامية تظل فى سمتها الغالب فقيرة الإمكانيات، الأمر الذى يؤثر على طباعتها ونوع الورق المستخدم فيها، فضلا عن أنه يؤثر أيضا على كفاءة الخدمة التى تؤديها ومحدودية الحركة التى تمارسها .

وبذلك يصبح " الفقر " هو الصفة الغالبة للصحف الإسلامية. الفقر فى الموارد، وفى المعلومات، وفى الكوادر، وفى عموم الوعى بالعمل الإسلامى ذاته .

٧ – التوزيع مشكلة أخرى تعانى منها الصحافة الإسلامية. وربما كان ذلك راجعا إلى محدودية قدرتها المالية بالدرجة الأولى . حيث صار شحن المطبوعات من بلد إلى بلد يمثل عبئا ماليا كبيرا لا تحتمله الحالة الإسلامية محدودة الموارد. وذلك يؤدى فى الأغلب إلى أن يصير خطاب الصحافة الإسلامية محدودة الأثر فى النطاق القطرى. ومن ثم فإن ذلك يؤثر على دائرة التلقى ويحدها فى ذلك النطاق .

يسهم فى محدودية التوزيع أيضا قيود الرقابة التى تفرضها أكثر الدول الإسلامية، خصوصا الدول المشتبكة مع الحالة الإسلامية، التى تمنع دخول كافة المطبوعات الإسلامية، كما هو الحال فى تونس مثلا .

وحتى لو ذللت كل تلك العقبات، حتى ما هو مالى منها، فثمة عقبة أخرى تبرز لتقيد من

نطاق توزيع الصحف الإسلامية، وهى عقبة اللغة. ذلك أن العالم الإسلامى تتعدد فيه اللغات بحيث صار متعذرا على أى مطبوعة إسلامية أن تحقق رواجا فى كافة أنحاء العالم الإسلامى .فالصحف العربية لايقرؤها من يتكلمون الفارسية أو الأردية، وهؤلاء وهؤلاء لا يستطيعون قراءة الصحف الصادرة باللغة الإنجليزية، المقروءة فى جنوب شرق آسيا والهند إضافة إلى الغرب .

ومن شأن ذلك كله أن تصبح الصحف الإسلامية محلية فى الأغلب، وغير قادرة على الوصول إلى قطاعات عريضة من المسلمين .

هذه بعض المشكلات التى أراها جديرة بالبحث، ولست أشك فى أن المناقشة يمكن أن تبرز أوجها أخرى لأزمة الصحافة الإسلامية. ويظل مهما فى نهاية المطاف أن ينتهى الحوار حول الموضوع إلى فهم عميق للمشكلة، وإلى بحث جاد فى محاولة حلها .

و على الله قصد السبيل